

٦ - الميسر والأزلام

للأستاذ عبد السلام محمد هارون

العامل الربى :

كان « هبل » أعظم صنم لقرين في مكة ، وكان مكانه في جوف الكعبة ، وفيه يقول ابن السكبي^(١) : « وكان فيما بلغني من عتيق أحر ، على صورة الإنسان ، مكسور اليد اليمنى ، أدركته قرين كذلك فجعلوا له بدأ من ذهب » . وهو الذي قال له أبو سفيان بن حرب حين ظفر يوم أحد :

أعل هبل !

— أى أعل دينك — فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

الله أعلى وأجل !!

عند هذا الصنم الجليل القدر لديهم كانت توضع « الأزلام » ،

(١) الأضنام ص ٢٨

ويقوم الكهان أو السدنة بإجابتها وإفاضتها لمن يريد الاستقسام ، إعظاما للأمر الذي يبيغونه ، فهم يختارون موضع القضاء في أقدس مكان لهم ، وإعظاما للحكم الذي يرتضونه ، فإن الذي حكم به هو سادن الكعبة ، أو أحد كهانهم

فكانوا يذهبون إلى « هبل » ، ومهم (مائة درهم) و (جزور) ، ويهطونها لصاحب القداح الذي يضرب بها^(٢) ،

ثم يقربون صاحبهم الذي يريدون الحكم في نسيه إن أرادوا ، ثم يقولون : « يا الهنا ، هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه ! » ثم يقولون لصاحب القداح : اضرب ! فيجبل القداح ويفيضها ، فإن خرج (منكم) كان منهم وسيطا ، وإن خرج (من غيركم) كان حليفا ، وإن خرج (مالمق) كان على منزله ، لا نسب له ولا حلف

وإن استشاروه في أمر يقتضى (نعم) أو (لا) فخرج (نعم) عملوا به ، وإن خرج (لا) أخرجوا الأمر عاماً كاملاً ثم أتوا مرة

(٢) قال أبو حيان في تفسيره : « فالتامة للضارب بالقداح ، والجزور

نجر ويؤكل »

المختلفة التي يكون عليها الفعل « اعتدى » مثل « اعتديا » للماضي المتني و « اعتديا » للأمر ، فيأثنى لماذا كان الماضي بالفتح والأمر بالكسر فلم أعرف لهذا سببا وقلت إنه لاسبب هناك سوى أن العرب نطقوا بها هكذا . فدعنى لهذا الجواب وقال ولكن لهذا سببا . قلت إن اللثة سبقت النحو والصرف ، وكل هذه القواعد موضوعه بعدها ، وما دمت أنطق كما كان العرب يفعلون فإن هذا يكنى ولا داعى للبحث عن سبب مختلف . فغضب وظهر هذا على وجهه فلم أبال بغضبه ، وحدثت نفسى أنه خيرى وأكرم أن أسقط بمخاتة من أن تكون علة سقوطى الجهل . وأصررت على رأى وكاد يحدث مالا يحمد ، لولا أن الرحوم الشيخ شوايش تدارك الأمر ، فقد نظر في ساعته ثم التفت إلى الشيخ حمزة وقال « المصر وجب بامولانا » فهض الشيخ وهو يقول « إى نعم » وذهب للصلاة ونسيتى فكان في هذا نجأتى .

محمد محمود محمد

للسلام بية

عاصفاً ، تجلى فيه غضب الشيخ الحليم وتحفز الطالب الطلمة . ولا بأس أن نورد هنا حديث ذلك اللقاء وإن كنا نسبق بذلك ترتيب الحوادث قليلا ؛ فقد كان المازنى يومذاك في آخر عهده بمدرسة المعلمين ، وكان يؤدى الامتحان النهائى للتخرج ، وكانت لجنة الامتحان الشفوى فى اللغة العربية برئاسة الشيخ حمزة ومن أعضائها الشيخ عبد العزيز شوايش والأستاذ عاطف بركات . . « فقال أحد إخوانى بعد خروجه من الامتحان أن الشيخ حمزة يفتح كتاب النحو والصرف ويطلب من الطالب أن يتلو الفصل الذى يقع عليه الاختيار . ولم تكن ندرس لأنحوا ولا صرفاً فى المدرسة لأن الدراسة كانت مقصورة على الأدب . فأيقنا بالنقل وجاء دورى فدخلت وأنا واثق من الرسوب وجلست أمامه فناولنى كتاب مقدمة ابن خلدون فقرأت . ولا أزال أذكر فاتحة الكلام وهى « أعلم أن المدوان على الناس فى أموالهم ذاهب بآمالهم فى تحصيلها » إلى آخره ، فقال ضع الكتاب فوضته . فسألنى عن المدوان والفنلين عدا واعتدى وانتقلنا إلى الصيغ

نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منك قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ثم
اتنوى. ففعلوا ثم أتوه، فدخل بهم على « هبل » في جوف
الكعبة، وكان منصوباً على بئر يجمع فيها ما يهدى إلى الكعبة.
فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند
« هبل » يدعو الله جاهداً، ثم ضرب صاحب القداح فخرج
القدح على (عبد الله) وهو أعز ولده عليه، فأخذ عبد المطلب
بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى إساف ونائلة^(٧) ليذبحه،
فقامت إليه قريش من أنديتها، وكذلك قام بنوه، فقالوا: والله
لا تذبحه أبداً حتى نمنر فيه! لأن فمك هذا لا يزال الرجل يأتي
بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟!

وكان أن لجئوا إلى عرافة في « خير » يسألونها في ذلك،
فقلت: كم الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل. قالت، فارجموا
إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا
عليه وعليها بالقداح، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل
حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فاحمروها فقد رضى
ربكم ونجا صاحبكم!

فرجموا إلى مكة، وضربوا بالقداح بين عبد الله وبين عشر
من الإبل، فخرج القدح على (عبد الله)! فزادوا عشرًا وضربوا،
ثم زادوا عشرًا وعشرًا حتى بلغت مائة، فضربوا فخرج القدح
على الإبل، فقلت قريش ومن حضر: قد انتهى رضا ربك
يا عبد المطلب. فزعموا أن عبد المطلب قال: لا والله حتى أضرب
عليها ثلاث مرات! فضربوا ثلاث مرات توثيقاً للأمر، كل ذلك
يخرج القدح على الإبل المائة. فنحرت ثم تركت لا يصد عنها
إنسان ولا يمنع

فها تان الحادثان تدلان على مقدار خضوع سادة العرب
وأشرافها لحكم الأزام، ومبلغ اضطرابهم وتهديسهم لأحكامها
تقرئس الأزام

وبلغ من تديسهم للأزام أنهم جعلوا في البيت الحرام صورة
لإبراهيم عليه السلام، وفي يده الأزام التي يستقيم بها^(٨)

(٧) إساف ونائلة: صنبا كان مكة، جعل أحدهما يلقى البيت
والآخر بززم، وكان يصر عندهما، وكانت الجاهلية تسمي بهما. بالتوت
(٨) انظر السيرة ٨٢١

أخرى يستقسمون بالأزلام^(٢)

بهذا العامل الديني، وبهذا الشعور الروحي الوثني استقسم
عبد المطلب بن هاشم مرتين:

١ - في حفر بئر زمزم^(١)، حينما أمر في منامه عدة مرات
بحفرها، وقام ليقضى ما كتب عليه في منامه، فحفر في البئر
— ولم يكن له من الولد حينئذ إلا الحارث بن عبد المطلب —
فلما تمادى به الحفر وجد فيها حفر غزالين من ذهب خالص، ووجد
أسيافاً قلمية وأدراعا، فقالت له قريش: يا عبد المطلب، لنا معك
في هذا شرك وحق!! قال: لا، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني
وبينكم، نضرب عليها بالقداح. قالوا: وكيف نصنع؟ قال:
أجعل للكعبة قدحين، ولى قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج
له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له. قالوا:
أنصفت! فجعل قدحين (أصفرين) للكعبة، وقدحين (أسودين)
لعبد المطلب، وقدحين (أبيضين) لقريش^(٤)، ثم أعطوا تلك
القداح لصاحب القداح التي يضرب بها عند « هبل »، فضربها
على النزالين فخرج (الأصفران) فكانا من نصيب الكعبة، ثم
ضربها أخرى على الأسياف والدرع فخرج (الأسودان) فكانا
من نصيب عبد المطلب، وتخلف قدحاً قريش لم يظفروا بشيء.
فضرب عبد المطلب الأسياف باباً للكعبة، وضرب في الباب
النزالين من ذهب، فأرضى بذلك نفسه وشموره الديني العميق،
وحسم الخلاف بينه وبين قومه بما حكم به « هبل »، وهو الذي
لا يرد له قضاء!!

٢ - المرة الثانية حينما نذر حين لقي من قريش مالتى عند
حفر بئر زمزم واستخفافهم به لقلته ولده^(٥): لئن ولد له عشرة
نفر ثم بلنوا معه حتى يمتوه لينحرن أحدهم لله عند الكعبة!!
فلسا توافى بنوه عشرة وعرف أنهم سيممنونه جمعهم ثم أخبرهم
بنذره، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف

(٢) السيرة ٩٧ - ٩٨ جوتجن

(٤) السيرة ٩١ - ٩٧

(٥) هذا دليل آخر على أن أزام الاستقسام لم تكن ذات نمط واحد،

أو نظام واحد

(٦) سبق القول أنه لم يكن له من ولده عند حفر زمزم إلا ولد واحد،

هو الحارث

بنو مائان رءوس بنى إسرائيل وملوكهم ، فقال لهم زكريا : أنا أحق بها ، عندى خالها . قالوا : لا حتى تقترع عليها . فانطلقوا وكانوا سبعة وعشرين إلى نهر الأردن فألقوا فيه (أقلامهم) ، فانرتفع قلم زكريا ورسبت أقلامهم فتكفلها

واختلف المنسرون في هذه الأقلام فقال بعضهم : هي أقلام الكتابة كانوا يكتبون بها التوراة ، فختاروها للقرعة تبركا بها وقال بعضهم : الأقلام هنا الأزلام ، وهي القداح

وقال أبو مسلم : كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة ، فن خرج له السهم سلم له الأمر . وهو شبيه بأمر القداح التي يتقاسم بها الجزور^(١٢)

وقال ابن قتيبة^(١١) : وكانوا تشاحوا في كفالتها ، فضربوا بالقداح ، وهي الأقلام ، فخرج قدح زكريا فكفلها

٢ - وأما الثانى فما كان من أمر السفينة التي ركب فيها يونس عليه السلام فرارا من قومه ، حين ذهب مفضيا ، فلما أبعدت السفينة في البحر ويونس فيها ركبت ، فقال أهلها : إن فيها لمن يجيب الله السفينة بسببه فلنقترع . فأخذوا لكل منهم سهما على أن من طفا سهمه فهو ، ومن غرق سهمه فليس إياه . فطفا سهم يونس ، فعملوا ذلك ثلاثا تقع القرعة عليه ، فأجمعوا على أن يطرحوه ، فألقى بنفسه فالتقمه الحوت^(١٣)

وقصة يونس هذه - وتسمية كتب العهد القديم يونان - مذكورة بتفصيل في سفر « يونان » ، جاء في الإصحاح الأول :

« فقام يونان ليهرب إلى « ترشيش » من وجه الرب ، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش ، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب . فأرسل الرب ريحا شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر . فخاف اللاحون وصرخوا كل واحد إلى إلهه وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم . وأما يونان فكان قد نزل إلى جوف السفينة واضطجع ونام نوما ثقيلًا . فجاء إليه رئيس النوتية وقال له : « لراك نأعنا . قم اصرخ إلى الملك

وفي حديث فتح مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت فرأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام^(١٠)

قال ابن هشام^(١٠) : « وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قائلهم الله ، جملوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ ما شأن إبراهيم والأزلام !؟ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست »

وفي مسند أحمد^(١١) برقم ٣٠٩٣ عن ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت ، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، في أيديهما الأزلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلهم الله ! أما والله لقد علموا ما اقتنسا بها قط »

الأزلام في التاريخ الدينى القديم

هـ القرآن الكريم على حادثين اثنين كان للأزلام فيهما نصيب ، ولكنها لم تكن على ما كانت عليه عند العرب من التقديس الوثنى ، بل كانت بمثابة القرعة التي سيأتى الكلام عليها : الحادث الأول أشار إليه الكتاب الكريم في قوله تعالى : « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » آل عمران ٤٤

والحادث الثانى أشار إليه قصة يونس : « فسام فكان من المدحضين » . الصافات ١٤١

١ - أما الأول فهو ما كان من أمر زكريا عليه السلام . روى أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد فوضعتها عند الأحبار أبناء هارون - وم في بيت المقدس كاللحبة في الكعبة - فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ! فتناقموا فيها لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم ، وكانت

(٩) السان (قسم)

(١٠) البيرة ٨٢١ - ٨٢٢

(١١) الجزء الخامس بتحقيق الأستاذ أحمد محمد شاكر . وانظر أيضا

رقم ٣٤٥٥ من السند

(١٢) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٤٢ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩) وكنا نضرب

الزبخى (١ : ١٤٣)

(١٣) البسر والقداح ٣٨

(١٤) تفسير أبى حيان (٢ : ٤٥٩)

وكانت العرب جميعا تهظمه ، وكانت له ثلاثة أقداح : الأمر ،
والناهي ، والتربص . فاستقسم عنده ثلاث مرات تفرج (الناهي)
فكسر القداح وضرب بها وجه الصنم وقال : « عمنضت و ...
أييك ! لو كان أبوك قتل ما عوقنتي ! »

ثم دل في ذلك :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا مثل وكان شيخك القبورا
لم تنه عن قتل العداة زورا

ثم غزا بني أسد فظفر بهم

قال ابن الكلبي : « فلم يستقسم عنده بشئ حتى جاء الله
بالإسلام ، فكان امرؤ القيس أول من أخفراه »

(للبحثية) عبد السلام محمد هارون

هسى أن يفكر الإله فينا فلا نهلك . وقال بعضهم لبعض : هلم
نلقى قرعا لنعرف بسبب من هذه البلية . فآلوا قرعا فوقعت
القرعة على يونان . فقالوا له : أخبرنا بسبب من هذه المصيبة
علينا . ما هو علك ومن أين آتيت ؟ ما هي أرضك ومن أي
شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبراني وأنا خائف من الرب إله السماء
الذي صنع البر والبحر . تخاف الرجال خوفا عظيما وقالوا له : ماذا
نصنع بك ليسكن البحر عنا . لأن البحر كان يزداد اضطرابا .
فقال لهم : خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم
لأنني عالم أنه بسبب هذا التواء العظيم عليكم .. « ثم أخذوا
يونان وطرحوه في البحر فوقف البحر عن هيجانه ، تخاف الرجال
من الرب خوفا عظيما وذبجوا ذبيحة للرب ونذروا نذورا : وأما
الرب فأعد حوتا عظيما ليبتلع يونان ، فكان يونان في جوف الحوت
ثلاثة أيام وثلاث ليال »

وبعد أن يسرد سفر (يونان) صلوات (يونان) في جوف

الحوت يقول : « وأمر الرب الحوت فقذف يونان إلى البر »

فهاتان القستان على ما فيهما من حمل المفسرين الأعلام فيهما
والمساهمة على معنى أزلام الجاهلية ، لا ريب أن ما فيهما من صنيع
هو بعيد كل البعد عن صنيع أهل الجاهلية فيما كانوا يعملون لتلك
الأزلام من قداصة ومن شرائط دينية وتقاليدي خاصة ، وإنما هاتان
ضرب من (القرعة) لا يزيدان عن تلك شيئا ولا يتقصان شيئا
والنص الذي سقته من سفر يونان مؤيدا أنها قرعة بعيدة
عن الاستقسام الوثني

التمرد على الأزلام

وقد بدت ظاهرة من ظواهر التمرد على تلك الأحكام الدينية
فيما رواها ابن الكلبي^(١٥) من أن امرأ القيس بن حجر أقبل يريد
الغارة على بني أسد ، فربذى الخلصة - وكان صنمًا بقبالة^(١٦) -

(١٥) في كتاب الأسماء ص ٤٧ ، ومعناه ياقوت في معجم البلدان (الخلصة)

(١٦) تباله : واد مجاور لوادى بيثة ، من أرض تهامة في طريق اليمن
وفي صحيح الأخبار للعلامة محمد بن بليهد (١ : ٦٨) : وتباله بأقية بهسنا
الاسم لل يونان هذا على شاطئ بيثة الشمال . وقال ابن حبيب في
المهر ٣١٧ عند الكلام على ذى الخلصة : « وهو اليوم بيت فمار فيها
أخبرت . وقال البرد فيما نقله عنه ياقوت : « مرضه اليوم مسجد جامع
بلدة يقال لها العبلات »

المراد

عجلة القصص الرفيع

عادت أقوى مما كانت عليه
جمال أسلوب ، وحسن اختيار ، ودقة ترجمة ،
ونخامة مظهر

الاشتراك السنوي ١٠٠ قرش في مصر والسودان ، ١٥٠
قرشا في الممالك الأخرى